المكتبات المدرسية[1]

● شيوع الكتاب وانتشاره بين العرب :

بين الكتابات المتعددة التى استخدمتها شعوب العالم ، من الصعب أن نجد كتابة تستخدم الحروف سهلة الذيوع والانتشار كتلك التى استخدمها الشعب العربى ، لأن بساطة تكوين الحروف فى أشكال بسيطة جدا أحيانا ،دون التواءات فى رسمها ، وإهمال الشكل عادة ، وعدم وجود رسم خاص للحروف فى أوائل الجمل وفى الأعلام ، وغيرها يجعل الوقت الذى نحتاجه فى نسخ صفحة ثلث الوقت الذى تحتاجه كتابتها باللغة اللاتينية على الأقل . كما أن صناعة الورق وتوفره ، وانتشار استعماله ، ورخص ثمنه بالنسبة لورق البردى أو الرق ، جعل ثمن الكتب رخيصا ، والحصول عليها ممكنا ، حتى من أشد طبقات المجتمع فقرا ، وفى الوقت نفسه وجدت مهنة الوراقة مجالا عريضا للانتشار والازدهار .

وطريقة الحياة عند الشعوب الإسلامية ، وغيبة المؤسسات والعادات التى نجدها عند الشعوب ذات النظم المتقدمة جدا ، كالتدخل فى القضايا العامة عن طريق المجالس ، أو تحقيق العدالة عن طريق المحلفين ، وعدم وجود معارض ، أو مسارح عامة ، أو مجامع علمية منظمة ، وغيرها ، جعل من الكتاب وسيلتهم الرئيسية للتربية ، وأدت الطريقة التى يسير عليها التعليم فى المدرسة ، إملاء ونسخا ، إلى شيوع مهنة النسخ والكتابة أيضا .

مثل هذه الظروف ، فيما يبدو لى ، جعلت العرب يفوقون الجميع ، بما فيهم الإغريق والرومان ، فى الكتابة ، ويسبقونهم فى أعداد الكتب والمخطوطات ، حتى لو افترضنا أنهم كانوا مثلهم فى انتشار التعليم ، أو حتى أقل مستوى منهم . ولا أود أن أعرض لقيمة محتوى المخطوطات ، لأن أدب العرب كأدب غيرهم ، وبلغ نفس مستواه ، ولا يقل قيمة عنه . ولكن المكتبات الإغريقية والرومانية تميزت بأنها أفضل تصنيفا ، لأن نسخ

---

(١) أبقينا هذه الفقرة فى مكانها من الدراسة رغم أن المؤلف درس هذا الموضوع بإفاضة فى مكان آخر ، ترجمناه أيضا ، ويتضمنه هذا المجلد ، لأن الدراسة هناك مستقلة ، وهنا تؤلف جانبا من نظم الدراسة ، علما بأن المؤلف نفسه جمع بينهما ، حين نشر البحثين معا فى مجلد واحد . « المترجم » .

الكتاب يكلف كثيرا ، وأعتقد أنهم كانوا يبذلون عناية كبيرة فى الاختيار ، كما أن رخص ثمن النسخ عند العرب نمى الرغبة فى الحصول على الكتب حتى لو كانت رديئة ، وتكاثر عددها بالنسبة لرخص ثمنها . ونفس السبب يمكن أن يقال الآن دون أن نخشى الخطأ ، فما ينشر من كتب رديئة فى عام واحد أكثر مما نشر على امتداد كل العصور القديمة . ولا أرى سببا يدعو للشك ، أو حتى للدهشة ، فيما أعتقد ، إذا قيل لك إنه كانت هناك مكتبات تضم أربع مائة ألف مجلد ، ولكن دون أن يأخذ ذلك شكل حقيقة تاريخية لا تقبل المناقشة ، ومثل هذه المجلدات لا يمكن أن نتحقق من قيمة فحواها ، حتى لو اتخذنا أسوأ ما أبدع الإغريق والرومان مقياسا فى مخطوطاتهم التى كان من حظها أن تنجو عبر القرون الوسيطة .

ولم تكد الحركة الثقافية تأخذ طريقها بين الإسبان المسلمين حتى أصبح الكتاب موضع التقدير والإعجاب ، ويكفى أى عائد من رحلة إلى المشرق أن يحمل معه كتابا جديدا ، حتى يصبح مناط الإعجاب والحفاوة من مواطنيه ، ومع الكتاب يأخذ اسمه طريقه إلى مدونات الأدب والتاريخ ، وأغلى الجواهر ثمنا ، وأعظمها قيمة ، كتاب نادر يستطيع التاجر الماهر أن يأتى به من المشرق إلى إسبانيا . وكان المسلمون ، من أصل إسبانى أو وافدين ، واليهود والمسيحيون ، والموالى يتنافسون فى أن تكون لهم مكتبات خاصة وغنية . ولم يبق الأمويون فى آخر الصف بالنسبة لهذه الحركة ، فأخذوه منذ البدء يجمعون من الكتب مجموعات كبيرة ، وبلغت قمتها فى حياة الحكم الثانى ، عاشق الكتب ، وأكثر أمراء بنى أمية غراما بها ، وأصبحت قرطبة مدينة الفكر ، والعقل المدبر لكل الغرب الإسلامى .

ولكن الإعجاب الحقيقى بالكتاب انحدر فيما بعد ، وأصبح مجرد عبث لا طائل تحته ، وأخذ لونا شكليا صرفا . فالخاصة ، والذين يريدون الزهو بأن لديهم مكتبة فحسب ، لم يتركوا لغيرهم فرصة الحصول عليه ، وما أكثر المرات التى تراجع فيها عشاق الكتب الحقيقيون ، ومن يعرفون كيف يقدرون محتواها ، أمام راغب فيه واسع الثراء ، خلال « المزايدات » التى كانت تشهدها قرطبة ، يدفع فى الكتاب أى ثمن ، ويبذل كل جهده للحصول عليه ، ولكنه لا يعرف عم يتحدث ، وكل ما هنالك أن تجليده فخم ، أو أن حجمه مناسب ليملأ فراغا محددا كان بالصدفة موجودا فى

أرفف مكتبته . وكان ابن فطيس يملك مكتبة عظيمة ، فى مكان فخيم ، يشرف عليها خازن ، ويعمل بها فريق من الناسخين ، ولخدمته فحسب[1] .

ومع فتنة البربر[2] تغيرت الصورة قليلا ، ومعها عانت العاصمة النبيلة أكثر مما عانته أية مدينة أخرى ، ومس ضرها وأهوالها ، فى المقام الأول ، أشرف الأسر ، وأعظمها قدرا ، وأوسعها ثروة ، وانتهى الحال بأعظم المكتبات إلى أيدى عشاق الكتب ، وهو ما حدث لمكتبة ابن فطيس ، ومكتبة الحكم الثانى ، وبعضها كهذه الأخيرة بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، وتوزعتها الأيدى ، وانتهى بها المطاف إلى خزائن هواة الكتب ، وبخاصة فى المقاطعات حيث بدأت الهوية تعبر عن نفسها ، مثل : إشبيلية ، والمرية ، وبطليوس ، وطليطلة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، وغيرها . ففى كل هذه المدن كان هناك هواة كتب ، ومكتبات عديدة غنية ، وتجارة وراقة مزدهرة ورابحة ، ويكفى أن نضرب لذلك مثلا واحدا ، فقد كان فى المرية شخص واحد بلغت الكتب المجلدة فى مكتبته أربع مئة ألف مجلد ، فضلا عن الرسائل والكراسات .

ويعود هذا الثراء فى المخطوطات ، ووفرة عددها ، إلى حب الأفراد وهوايتهم فحسب ، أما الدولة نفسها فلم تعر إقامة المكتبات اهتماما ، وحتى مكتبة الحكم الثانى نفسه ، ويظن البعض أنها كانت تفتح للجمهور ، كانت خاصة به وحده ، ولاستخدامه شخصيا[3] .

● **وقف الكتب لصالح الطلاب :**

ومع ذلك لم يكن ينقص الطلاب مؤسسات خاصة تمدهم بالكتب التى يحتاجون إليها فى دراساتهم ، ونلحظ فى زمن مبكر جدا من حياة الإسلام هنا ،أن ثمة أشخاصا يحبون العلم يوقفون كتبهم على استخدام الطلاب ، ويعهدون إلى صديق أو قريب لهم بأن يفتح مكتباللقراءة والنسخ والمعارضة ، يتردد عليه الطلاب ، ويستفيدون مما به ،

(١) بيعت هذه المكتبة فيما بعد بما قيمته أربعون ألف عملة ذهبية ، وهو ما يساوى الآن مليونين من الجنيهات تقريبا .

(٢) عن فتنة البربر تفصيلا انظر كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .

(٣) لن أبرهن على رأيى هنا ، ولن أكرر ما قلته فى دراسة خاصة عن الكتب والمكتبات فى إسبانيا الإسلامية ، وهى تمثل الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ولكن مثل هذه المؤسسات لم تعط النتائج المرجوة فيما يبدو ، لأن المدارس جذبت المكتبات إليها ، وقد أقيمت هذه فى المساجد ، ومن المؤكد أنها ورثت المكتبات ، وجمعت بين المدرسة والمكتبة ، ومنذ ذلك الحين مضتا متلازمتين لا تفترقان . وهذه الطريقة جلبت الضرر معها ، لأن أى كتاب تحوم حوله الشبهات ، أو يحتوى علما غير محبب إلى الرجال الأتقياء ، لا يستطيع تقريبا أن يأخذ طريقه إلى المسجد ، وكانت مكتبات المساجد تمتلىء بالكتب الغالية ، للجهد الكبير الذى بذل فى نسخها بخط جميل ، أو لروعة تجليدها ، وبالمصاحف ، وكتب الأدعية ، والفقه ، وعلم الكلام ، وكلها تمثل المحور الرئيسى فى المكتبة ، وكانت تقل فيها كتب الشعر غير الدينى ، ولا شىء من كتب العلم القديم ، أى ما يتصل بالدراسات الإغريقية ، وكانت هذه نادرة جدا حتى فى المكتبات الخاصة .

ولم يكن عدد المكتبات التى من هذا النوع ستين فحسب ، على نحو ما أشار إليه **فون شاك**[(١)] ، وسار فى هذا العدد على خطى **ميخائيل غزيرى** ، مؤلف أول فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكوريال ، وهو رقم خاطئ ، وقد صححه المستشرق الإسبانى جيانجوس بعد ذلك بخمسين عاما ، عندما أصدر الترجمة الإنجليزية للقسم الأول من كتاب نفح الطيب[(٢)] ، وإنما كانت أكثر من هذا ، ويمكن القول إنها تساوى عدد المساجد التى أهداها المؤمنون كتبا . وإذا كان الإسبان قد ساروا فى هذا على خطى أهل المشرق ، فيمكن الظن بأن الطلاب هنا ، لم يكونوا ينفقون فى شراء الكتب فلسا واحدا ، لأنها تكثر فى المكتبات .

---

(١) أورد فون شاك هذا الأمر فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » وقد ترجمته إلى اللغة العربية ، وظهر القسم الخاص بالفن فعلا ، تحت عنوان الفن العربى فى إسبانيا وصقلية » ، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٨٥ ، وظهر الجزء ١ من الشعر فى دار المعارف ١٩٩٠ ، وسوف يصدر الجزء الثانى قريبا .

(٢) انظر : Gayangos : History of the Mohammedan Danastics in Spain , tomo I , Pag . 547 .
وذلك عند دراسته كتاب ابن بن خير .